الاستفهام وجوابه في كتاب نثر الدر

Questions and answers in the book "Nathr al-Durr"

م.م. حنان فاخر مطلب

مديرية تربية النجف الاشرف

M.M. Hanan Fakher Matlab

Najaf Education Directorate

الملخص :

أسلوب الاستفهام في اللغة العربية يُعد من أجمل الأساليب وأكثرها تنوعًا، فهو يستخدم للتعبير عن التساؤل وطلب المعرفة أو الفهم بطريقة مباشرة. عندما نريد أن نستفسر عن شيء معين أو نثير فضول الآخرين، نلجأ إلى أدوات الاستفهام المختلفة التي تساعدنا في صياغة الأسئلة المناسبة.

أدوات الاستفهام متعددة ولكل واحدة منها دور خاص. على سبيل المثال، عندما نريد أن نسأل عن الأشخاص نستخدم "من"، مثل: من زارك بالأمس؟ أما إذا أردنا معرفة الزمن نستخدم "متى"، مثل: متى ستبدأ الرحلة؟ وإذا كان السؤال عن المكان نستخدم "أين"، مثل: أين وضعت المفاتيح؟.

وفي حال كنا بحاجة إلى فهم الطريقة أو الوصف، نستخدم "كيف"، كما في: كيف حللت المسألة؟ وإذا أردنا معرفة السبب نطرح السؤال باستخدام "لماذا"، مثل: لماذا تأخرت عن الموعد؟.

أما الأسئلة التي تتطلب إجابات محددة مثل الأعداد أو الاختيار، فنستخدم "كم" و"أي". على سبيل المثال: كم كتابا قرأت هذا الشهر؟ أو أي لون تفضل؟. وفي بعض الأحيان نحتاج إلى أسئلة يكون جوابها بسيطًا مثل "نعم" أو "لا"، وهنا نلجأ إلى "هل"، كما في: هل تحب السفر؟.

جواب الاستفهام يختلف حسب نوع السؤال. قد يكون دقيقًا ومحددًا، مثل إجابة سؤال "متى تصل؟" بقول: أصل الساعة الرابعة. أو قد يكون مختصرًا إذا كان السؤال بسيطًا كـ "هل ذهبت إلى السوق؟"، حيث يكون الجواب بـ نعم أو لا. وفي بعض الحالات، قد نحتاج إلى شرح أكثر عندما يكون السؤال مثل: لماذا غادرت الاجتماع مبكرًا؟ وهنا يكون الجواب تفصيليًا.

بشكل عام، أسلوب الاستفهام يُضفي على الحوار طابعًا من التفاعل والحيوية، ويعبر عن الفضول الإيجابي والرغبة في الفهم أو التواصل.

الكلمات المفتاحية: (الاستفهام ، شعرية الاستفهام ، أسلوب التعبير)

Abstract

The interrogative style in the Arabic language is considered one of the most beautiful and diverse styles. It is used to express inquiry and the desire for knowledge or understanding in a direct and elegant way. When we want to ask about something specific or spark curiosity, we turn to the various interrogative tools that help us formulate suitable questions.There are multiple interrogative tools, each serving a specific purpose. For example:Who " Used to ask about people, such as: Who visited you yesterday?When "Used to inquire about time, such as: When will the trip begin?

"Where "Used to ask about location, such as: Where did you place the keys?How "Used to understand the method or description, such as: How did you solve the problem?Why "Used to ask about reasons, such as: Why were you late for the appointment?How many "Used to inquire about numbers or quantities, such as: How many books did you read this month?Which "Used for making choices between specific options, such as: Which color do you preferIs/Are/Do/Does"Used for yes/no questions, such as: Do you like traveling?The answers to interrogative questions vary based on the type of question. They may be precise and specific, like answering When will you arrive? with I will arrive at four o'clock, or brief if the question is simple, like Did you go to the market? answered with Yes or No. Sometimes, detailed explanations are needed for questions like Why did you leave the meeting early?In general, the interrogative style adds a lively and interactive element to conversations, reflecting positive curiosity and a desire for understanding and communication.

Keywords: (interrogation, interrogative poetry, expression style)

توطئة:

الاستفهام أسلوب إنشائي، ويميّز الإنشاء من الخبر بتعريفه بأنه: "الكلام الذي لا يحتمل التصديق أو التكذيب، وهو على ضربين:

الأول: الإنشاء الطلبي: وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب.

الثاني: الإنشاء غير الطلبي: وهو ما ليس كذلك. وهذا الضرب لا يدخل في علم المعاني، ولكنّه كثيًا ما يمرّ في الكلام عن طريق القَسَمِ والتعجب وصيغ المدح والذم"( ).

وهذا يعني أنّ ما يدخل في مجال الشعرية من أساليب الإنشاء وهو الإنشاء الطلبي، وأساليبه كثيرة أهمها: التمنّي، والاستفهام، والأمر والنهي، والنداء، التي تخرج عن معاني الحقيقة إلى معاني المجازية ذات التأثير الشعري في المتلقي، وأبرز ما شاع وكثر في كتاب نثر الدر في المحاضرات هو أسلوب الاستفهام وجوابه بالطريقة التي تولّد شعرية عالية الأثر في نفس المتلقي الداخلي، أي الداخل في سياق التواصل الحواري، فضلا عن المتلقي الخارجي الذي هو الناقد الكاشف عن شعرية هذا الأسلوب المميز في كتاب نثر الدر، وعلى هذا الأساس سندرس هذا الأسلوب بمطلبين على النحو الآتي:

أولا: شعرية الاستفهام المجازي:

يعرّف الاستفهام بأنه طلبُ الفهم عن مجهول يحتاج إلى جواب( )، ويخرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مجازية تفعّل الكفاية التأويلية للمتلقي، وذلك ما ذكره الآبي في حكايته عن العباس عمّ النبي(ص) عندما عميَ وكان سعيد بن جبير يقوده، فمّر بقوم من أهل الشام يسبّون علياً (ع) بمكّة، فقال لسعيد: رُدّني إليهم، فردّه، فوقفَ عليهم فقال: أيكم السابُ الله؟ قالوا: سبحان الله. ما فينا أحدٌ سبَّ الله. قال: فأيكم السابّ محمد؟ قالوا: سبحان الله ما فعلنا. قال: فأيكم السابَّ عليّ بن أبي طالب؟ قالوا: أما هذا فقد كان. قال: أشهد على رسول الله (ص) لسمعته يقول: مَن سبَّ علياً فقد سبّني، ومن سبّني فقد سبَّ الله، ومن سبَّ الله كبّهُ الله على منخريه في نار جهنم، ثم ولى..."( ).

نلحظ أنّ العباس لم يُرد بالسؤالين الأولين إلّا أن يكون جوابهما مغلقا بـ(لا)، للإيقاع بالخصم وينبّههم على الضلال بالبرهان القاطع، ويؤكّد لهم الوعيد عن طريق الاستواج، أما السؤال الثالث الدال على الإقرار ب،(نعم) فهو السؤال الذي اتخذ منه العباس مسلّمة لإقامة الحجة على الخصم بأنهم إنما ارتكبوا اموًا عظيمًا في سبّهما لعلي (ع).

ولمّا ظفر جيش المستعين العباسي بيحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين الثائر بالكوفة، حُمل رأسه إلى المستعين في سامراء فصلبه حينا، وأمر أنْ يصلبَ في بغداد، فلمارآه الناس لعنوا السلطان لقرب الشهيد من رسول الله(ص)، فقال ابن الرومي:

أكلكمُ أمسى أطمأنّ فؤادُه؟ بأنّ رسولَ الله في القبرِ مُرتهنُ"( )

نلحظ أنّ الاستفهام خرج إلى معنى التوبيخ وتعظيم الحادثة وإنكارها بمعنى "ما كان ينبغي أن يكون، نحو: (أعصيت ربّك؟!)، أو ما كان، لا ينبغي أن يكون نحو: (أتعصي ربك؟!)..."( )

وقد يأتي الاستفهام للتهكّم، وذلك ما ورد في قول ابنه النعمان بن بشير لزوجها روح بن زنباع: "كيف تسودُ وأنتَ من جذام، وأنت جبان، وأنت غيور؟ قال: أما جذام فإنّي في أرومتها، وحسبُ الرجل أنْ يكون أُرومة قومه. وأما الجبن فإنما لي نفس واحدٌ وأنا أحوطها، وأما الغَيرة فأمُرّ لا أُحبّ أنْ أشارك فيه، وإنّ الحرَّ لحقيق بالغَيرة، إذا كانت في بيته ورهاء( ) مثلكِ"( ).

وبكثر ورود هذا المعنى، أي التهكم في النوادر، ومن ذلك نوادر أبي العيناء، إذ قال له يومًا نجاح بن مسلمة: "ما ظهورُك وقد خرج توقيعُ أمير المؤمنين في الزنادقة؟ فقال: نستدفع الله عنك وعن أصهارك... ومرّ على دار عدوّ له، فقال: ما خبرُ أبي محمد؟ فقالوا: كما تحبُّ، قال: فما بالي لا أسمعُ الرنّةَ والصواخ؟"( )، يُريد التهكّم منه عدوه لا السؤال الحقيقي.

وقد وردت أسئلة التهكّم بكثافة في كلام أبي العيناء مع الوزير أبي العلاء ذي الوزارتين، وذلك في إحدى نواوه، حين سأله يوما: "وما الذي أخّرك عنّا؟ قال: بُنيتي. قال: وكيف؟ قال: قالت: يا أبه، قد كنتَ تغدو من عندنا فتأتي بالخِلعة السريّة، والجائزة السنية، ثم أنت الآن تغدو مُسدفا( )، وترجع مُعتما، فإلى من؟ قلت: إلى أبي العلاء ذي الوزارتين. قالت: أيعطيك؟ قلتُ: لا، قالتْ: أيشفّعك؟ قلتُ: لا، قالتْ: أفيرفعُ مجلسَك؟ قلتُ: لا، قالت: يا ابه ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾( )"( ).

نلحظ أنّ السؤالين الأولين حقيقيان بدليل أنّ السائل طلب بهما الجواب. أما الأسئلة التالية بما فيها سؤال الآية الكريمة فإنّها تهكّمية، ساخرة من المخاطب ومحقّرة إياه، وذلك يؤدي إلى انعكاس أثر الخطاب على المخاطَب بفعل شعرية الخطاب العالية من التهكّم.

وقد يخرج الاستفهام في كتاب نثر الدر إلى معنى التعجب، وذلك ما ورد في كلام سيفويه إذ قرأ رجلٌ في مجلسه: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾( )، فقال: وتلومه؟!"( ).

وروى الآبي قصة طريفة عن بعض أصحاب الحديث الذي انحدر مع قوم من سامراء في سفينة ومعهم نصراني صبّ لنفسه كأس خمر وعرضها على المحدّث فتناولها، فقال النصراني: "جُعلتُ فداك، إنما عرضتُ عليك كما يعرضُ الناس، وإنما هي خمر، قال:

أين علمتَ أنها خمر؟ قال: غلامي اشتراها من إنسان يهودي وذكر أنها خمر، فشربها [المحدّث] بالعجلة وقال: أولم يكن إلّا لضعفِ الإسناد لشربُتها، ثم قال للنصرانيّ: أنت أحمق، نحن أصحاب الحديث نضعّف حديث سفيان بن عُيينة ويزيد بن هارون، أفنصدِّق نصرانياً من غلامه عن يهودي؟! هذا محال"( ).

نلحظ أنّ السؤالين يعبّران عن معنى التعجب؛ لأنّ التعجب من أقوى اساليب نفي الحقائق الدامغة التي تنفي تستطيع أن تنفي الاعتراف والشهود فضلا عن التجربة. وبمثل هذا جاء تفسير الزمخشري(ت538هـ) لقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾( )، قال: "أتجعل فيها: تعجّب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم لا يفعل إلّا الخير ولا يريد إلّا الخير"( ). ويحدِّد السياق اللغوي معنى التعجب في الاستفهام التعجّبي، الذي يكثر في نوادر القصاص، بحسب القصة السابقة، وغيرها ممّا رواه الآبي عن الجاحظ أنه وقف على قاص وقد اجتمع عليه خلقٌ كثير منهم جماعة من الخصيان فأخذ يقصّ فلم يعطِهِ أحدٌ شيئا، فعمل حيلة بقصّه حديثا مكذوبا على رسول الله(ص)، قال: "حدّثني فلانٌ عن فلانٍ عن النبي (عليه السلام) قال: قال ربُّ العالمين عزّ وجلّ: ما أخذتَ كريمتي عبد من عبادي إلّا عوّضته الجنة، أتدرون ما الكريمتان في هذا الموضع؟ قال الناس: ما هما؟ فبكى، وقال: هما الخصيتان -وهو يتباكى ويكرر-، فجعل كل واحد من الخصيان يحلّ منديله حتى اجتمعت له دراهم كثيرة"( ).

ومنه قول الآبي إنه: "دفع واحدٌ قطعة إلى قاص، وقال: ادعُ لي ولأبويّ بالمغفرة، فرفع القاصُّ رأسَهُ وقال: ثلاثة أنفس بقراط؟ ورخصاه!"( ). وقال آخر: "رأيتُ قاصًا يقصّ غداة يومٍ، ثم رأيته عشيّاً في بيتِ تبّاذ، والقدح في يده، قلتُ: ما هذا؟ قال: أنا بالغداة قاص، وبالعشيّ ماص"( ).

وكذلك كثُر سؤال التعجب في نوادر حُجا، ومن ذلك ما رواه الآبي أنه قيل لجحا: "أتعلمتَ الحساب؟ قال: نعم فما يُشكِل عليّ شيءٌ منه. قال له: أقسِم أربعة دراهم على ثلاثة، فقال: لرجلين درهمان ودرهمان، وليس للثالث شيء... ورؤه يوما في السوق يعدو فقالوا: ما شأنك؟ قال: مرّت بكم جاريةُ رجلٍ مخضوبِ اللحية؟!

واجتاز يومًا بباب الجامع فقال: لمن هذا القصر؟ قالوا له: هو مسجد الجامع، قال: رحمَ الله جامعاً، ما أحسنَ ما بنى مسجده!"( ).

وذُكر أنّ قاصًا كان يُكثر التحديث عن هرم بن حيّان، فاتفق أنْ كان معه هرمٌ في المسجد وهو يقول: "حدّثني هرم. -مرّة بعد مرة بأشياء لم يعرفها هرم- فقال له: يا هذا أتعرفني أنا هرم بن حيّان؟ ما حدّثتك بهذا من شيء. فقال له القاص: وهذا أيضا من عجائبك، إنه ليصلّي في المسجد خمسة عشر رجلاً اسم كل واحد منهم هرم، فكيف توهمت أنْ ليس في الدنيا هرمٌ غيرك؟"( ).

وقد ورد هذا المعنى في الشعر أيضا، وذلك في قصة رواها الآبي عن ظبية أفلتت من رجلٍ فقال له أعرابي: "أتحبّ أن تكون لك؟ قال: نعم، قال: فاعطني أربعة دراهم حتى أردّها إليك، ففعل، فخرج يمحص في أثرها فحدّق وجدّ، حتى أخذ بقرنيها، فجاء بها، وهو يقول:

وهـــيَ علـــى البعـــدِ تُلـــوّي خـــدَّها
تُريـــغُ شـــدّي وأُريـــغُ شـــدَّها
كيـــفَ تـــرى عَـــدْوَ غُـــلامٍ ردَّهـــا؟( )

وقد يأتي الاستفهام لأداء معنى التحسّر على ما فات، وذلك قول علي بن محمد بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع)، الذي حُبس مرتين وخرج من حبس الموفق العباسي بعد مدة طويلة فهنّأه بعضهم، فقال: "يا أبا عليّ ذهب الأتراب والشباب والأصحاب"، وأنشد:

هبني بقيتُ على الأيامِ والأبـ ... ـد ونلتُ ما نلتُ من مالٍ ومن ولد
مَن لي برؤية مَنْ قد كنتُ آلفُـ ... ـهُ وبالشبابِ الذي ولّى ولم يعد؟( )

وخلاصة القول إنّ الاستفهام في نثر الدر قد خرج في كثير من الاستعمالات عن معناه الحقيقي، وهو طلب الفهم، فدلّ على معانٍ غير معناه الأصلي وهي تفهم من سياق الكلام، وقرائن الأحوال المقامية، وأهمّ هذه المعاني المجازية ذات الشعرية العالية هي الإنكار والتنبيه على الضلال والوعيد، وقد كُثر في أداء معنى التهكّم والتعجّب، اللذين كثرا في أداء القصاصين لإسباغ صفة الشعرية على قصصهم، إذ ترتقي شخصيات قصصهم بهذا الأسلوب إلى المستوى الفني المؤثر فتُرى :أنها غير شخصيات غير واقعية.

فالاستراتيجيات التي يستعملها المتكلم البليغ للوصول إلى هدفه بأقصر الطرق هي المنتجة لشعرية الخطاب في الاستفهام وجوابه، وتعرّف استراتيجية الخطاب بأنها: "طرائق محددة لتناول مشكلة ما، أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي مجموعة من العمليات الذهنية تهدف إلى بلوغ غاية معينة، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة والتحكّم بها"( ).

ولعل أهمّ الوسائل اللغوية التي يستعملها طرفا الاتصال في استراتيجية الخطاب هي استراتيجية الاستفهام وجوابه، إذ لا يشترط هنا أنْ يكون الاستفهام مجازيًا، لتحقق هدفه، فالاستفهام الحقيقي يمكنه أيضاً أن يحقق الأثر المطلوب ويعدّ من عناصر الشعرية، وذلك بأدائه الوظائف الآتية:

1- وظيفة أسلوب التعبير في الاستفهام وجوابه:

ممّا ورد في كتاب نثر الدّر مستعملاً استراتيجية الاستفهام وجوابه، لتأدية وظيفة أسلوب التعبير المحققة للوظيفة التعليمية والبلاغية والدعابة وتوجيه الذات وغيرها، ما رواه الآبي عن المأمون الذي قتل ابن عائشة و:"أي العباس بن الحسين قد ركب مع أهله ومواليه في سلاحهم، فقال له المأمون: سُررتَ بالمخاضِ طمعاً في الولاءة؟!، فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أنْ أكون عليكَ مع عدوّ، وما أعلم من بني أبي أحداً لو مَلَكَ كان لي مثلك. قال: فما هذِه العِدّة والعُدّة؟. قال لأمر الله وقوله: (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ)( )، فقال: أنت المصدّق"( ).

نلحظ أنّ سؤال المأمون: (سررتُ بالمخاضِ طمعاً في الولاءة؟!) يدلّ على استنكار ظروف الكلام، وأراد فضح موقف المخاطَب، بالإجابة بـ(نعم/ أو لا)، وهما من الأسئلة المغلقة التي لا تسمح إلا بهذه الإجابة، ولو كان سؤالاً غير مباشرٍ( )، لكنّ المخاطب عمل على انفتاح السؤال ليسمحَ لنفسه أنْ يختار الإجابة التي يريدها، بالآليات البلاغية الآتية:

- معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أكونَ عليك مع عدوّ!!.

- وما أعلم في بني أبي أحداً لو ملك كان لي مثلك.

ولهذا طلبَ المتكلم تفسيراً للتسلّح المشهود بسؤاله المباشر المغلق: (فما هذِه العِدّة والعُدّة؟)، فكان الجواب بالاستراتيجية السابقة نفسها التي لا تمنح الموضوعات أن ترتبط بعلاقة سببية أو بعلاقة مشابهة أو علاقة التحفيز التي تدرج الموضوع بوصفه قضية خبرية تحتمل الصدق أو الكذب( )، وإنما تجعل الخبر كالإنشاء لا يحتمل إلا الصدق الذي ينفي التهمة عن طريق انفتاح الدلالة التي تعمل شعريتها في تنشيط الكفاية التأويلية التي تكشف عكس الظاهر في باطن ظروف الكلام.

وحين أظهر الرسول (ص) دعوته بمكّة بحماية عمّه أبي طالب، مشت قريش إلى أبي طالب بـ"عمارة بن الوليد؛ فقالوا: أدفع لنا محمداً نقتله لئلا يغير ديننا ويعرّضنا لقتالِ العرب، وامسك عمارة فاتخذه ولداً –وكان عمارة جميلاً جهوراً- فقال: ما انصفتموني يا معشر قريش، أدفع إليكم ابني تقتلونه وأمسك ابنكم أغذوه لكم؟!"( ).

والسؤال –هنا- إنكاري، ويحمل معنى التهكّم والتعجب؛ لذلك يصبح جواباً لسؤال قريش المغلق بتسليم ابن أخيه لقتله أو لمعرفة موقف أبي طالب من آلهتهم، وعليه كان خطاب الكفار باستعمال أسلوب الأمر، لتوظيف الافتراضات المسبقة بالطاعة. وهذا النوع من الأمثلة يشبه سؤال المحقق في خطابه( ):

- ما لون السيارة التي سرقتها؟!.

أي أنّ سؤال الكفّار لأبي طالب أن يدفع لهم محمدًا (ص) وتعويضه بشخص آخر، يهدف إلى دفع أبي طالب إلى الرفض بـ(لا) من دون تعليل فيُعرف مذهبه بأنه مؤمن يخفي إيمانه، أو يُجيب بـ(نعم) فيُعرف بأنه كافر مثلهم؟! لكن جواب أبي طالب جاء بهيأة سؤال إنكاري حوّل الاستفهام المغلق إلى مفتوح بتغيير مسار استراتيجية الاستفهام التوجيهية عن قصدها، فحرمت السائل من تحقيق هدفه، ما يجعل الإجابة كينونة إبداعية بامتياز، إذ تظهر الاختلاف والتفرد هو الذي يتكلم بالنيابة عن المرسل إليه أو متلقي الكلام( ).

وروى أبو عبيدة أنّ نافعَ بنَ الأزرق سأل ابن عباس فقال: "أرأيت نبيَّ الله سليمان مع ما خوّله الله –عز وجلّ- وأعطاه، كيف غُني بالهدهد على قلّتهِ وضؤولته؟. فقال له ابن عباس: إنه احتاج إلى الماء. والهدهد قناء، الأرض له كالزجاجة يرى باطنَها من ظاهِرها، فسأل عنه لذلك. فقال له ابن الأزرق: قفْ يا وقّاف، كيف يبصرُ ما تحتَ الأرض والفخُّ يُغطّي له بمقدار اصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه؟ فقال ابن عباس: ويحك يا ابن الأزرق، أمَا علمتَ أنه إذا جاءَ القدرُ عشِي البصرُ"( ).

وُروي أنه أتاه يوماً فجعل يسأله حتى أملّهُ، فجعل ابنُ عباس يُظهر الضجر، وطلع عمرُ بن عبد الله بن أبي ربيعة –وهو يومئذٍ غلام- فسلّم وجلس، فقال ابن عباس: "ألا تُنشدنا شيئًا، فأنشد( ):

أمِـن آلِ نُعـمٍ أنـتَ غـادٍ فمُبكـــــــــــــــــرُ   غداةَ غدٍ أمرائحٌ فمُهجّرُ

حتـى أتمهـا وهـي ثمـانون بيتـاً، فقـال لـه ابـن الأزرق: لله أنتَ يا ابن عباس أنضربُ إليك أكباد الإبل نسـألك عـن الـدين فتُعرض، ويأتيـك غـلام مـن قـريش فينشدك سفهًا فتسمعه؟! فقال: لا واللهِ ما سمعتُ سفهًا، فقال ابن الأزرق: أما أنشدك:

رأتْ رجلًا أمّا إذا الشمسُ عارضــــــــــتْ   فيخـزى، وأمّـا بالعشـيّ فيخسـ ـــــــــــــرُ

فقال: ما هكذا قال، إنما قال:

.... فيضُــــــحي، وأمّـا بالعشـ...

قـال: أو تحفـظ الـذي قـال؟ قـال: والله مـا سـمعتها إلا ساعتي هذِه، ولو شئتُ أن أرُدّها لرددتُها..."( ).

نلحـظ فـي هـذا الـنصّ الطويـل شـمول السؤال وجوابـه علـى حوار ساخنٍ أدى عـدة وظـائف أسـلوبية شملت الوظيفة التعليمية والبلاغية، وتوجيه الذات، فضلًا عـن التقريـر والدعايـة التـي تظهـر فـي أسـئلة وأجوبـة أصحاب النوادر التي تعدّ من الأدب الثمين لتفرّده بأداء وظائف عديدة بإيجاز شديد.

ومـن ذلـك مـا ذكره الآبـي بـأن (مزبد) اسـتأذن بالدخول على بعض البخلاء وقد أُهدي له (تين) في أول أوانـه، فلمّـا أحسّ البخيل بدخوله تنـاول الطبق فوضعه تحت السرير، ثم قال لمزبد: "ما جاء بل في هذا الوقت؟ قـال: يـا سـيدي؛ مـررتُ السـاعةَ ببـاب فـلان، فسـمعتُ جاريته تقرأ لحنًا ما سمعتُ قطّ أحسنَ منـه. فلمّا علمتُ من شدّة محبتك للقرآن، وسماعك للألحان حفظته، وجئتُ لأقرأه عليك. قال: فهاته ، قال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُـونِ * وَطُورِ سِينِينَ﴾( ). فقـال: ويلـك أيـن التين؟ قال: تحت السرير"( ).

وقال رجلٌ لغلام: "بكم تعمل معي؟ قال: بطعامي، قـال لـه: أحسـن قلـيلًا، قـال: فأصوم الاثنـين والخميس. وكـان بعضـهم يأكـل ومعـه علـى المائـدة ابنـه وزوجتـه؛ فقال: لعن الله الرحمـة، فقـال لـه ابنـه: يـا أبـه، تعنينـي؟ فلـيس ههنـا غيـري وغيـر أمي؟...قـال: فتـوى أعنـي نفسي؟"( ).

2- الوظيفة الخارجية للاستفهام وجوابه:

تشمل هذه الوظيفة وظائف ثانوية أخرى وهي:

تقـديم المعلومـات الفكريـة والاجتماعيـة، والـدعوات الاجتماعية الاستشارية( )، وفيها يكون الجواب مُغلقًا يُجاب فيـه علـى الأسئلة بـ(نعم/لا) ولا يمنـع مـن تقديم التعليـلات المؤكِّدة للإجابة. وقد يتحقق السؤال الذي يؤدّي هذِه الوظيفة بصيغ الألفاظ الدالـة علـى الاستخبار بصيغة الأمر، نحـو: "أخبرني عن كذا، أعلمني، وبالفعل المضارع ذي التنعيم الدال على الاستفهام..."( ).

وقد بيّن السكاكي(ت626هـ) أنّ أسلوب الاستفهام مختلف عن أساليب الطلب الأخرى، الأمر والنهي والنداء؛ لأنه يؤدي وظيفـة خارجيـة وذلـك قولـه: "فإنّـك فـي الاستفهام تطلب ما هو في الخرج، ليحصل في ذهنك نقشٌ له مطابق، وفيمـا سواه تـنقش فـي ذهنـك ثـمّ تطلب أن يحصل لـه فـي الخـرج مطـابق فـنقش الـذهن فـي الأول تـابع وفـي الثـاني متبوع"( ).

ويُجـاب عـن الوظيفـة الخارجيـة بمطابقـة الجـواب للحقيقة، وتظهر كثيرًا في السؤال عن الماهيـة، وفي السؤال الذي يُجاب عليه بالبراهين الاقناعية، نحو إجابة أحد شيوخ البصرة عـن سـبب تحليـل المتعـة، قـالوا: "بمـن اقتـديت فـي تحليـل المتعـة؟ فقـال: بعمـر بـن الخطـاب، فإنّـه قـال: إنّ الله ورسوله أحلّا لكم متعتين، وأنا أحرمهما عليكم وأعاقب. فقبلنا شهادته، ولم نقبل تحريمه"( ).

وقد ورد في نثر الدر بكثرة بين الخلفاء والأمراء من جهة ومستشاريهم ومنادميهم من جهة أخرى، إذ ذكر الآبي أنّ المتوكل يومًا قال لأبي العيناء : "كيف شربُك النبيذ؟ قال: أعجزُ عن قليلـه، وافتضـح عند كثيره: فقال: دع هذا عنك ونادمنا. فقال: يا أمير المؤمنين إنّ أجهل النـاس مَـن جهل نفسَهُ، ومهما جهلتُ من الأمر فلن أجهل نفسـي، أنـا امرؤ محجوب، والمحجوب مخطوف إشارته، ملحوظ بصره، ينظر إلى مَن لا ينظر إليه...

وقال أبو العيناء، قال لـي المتوكل يومـًا: بلغنـي أنّـك رافضي، فقلتُ: ألدينٍ أم لدنيا؟ فإنْ أكُ للدين ترفضّتُ فأبوك مستنزل الغيث، وإنْ أكُ للدنيا ففي يدك خزائن الأرض، وكيف أكـون رافضـيًّا، وأنــا مـولاك، ومولـدي البصرة، وأسـتاذي الأصمعي، وجواني بأهلـه؟ فقال: إنّ ابن سعدان زعمَ ذلك. قلتُ: ومن ابن سعدان؟! واللهِ ما يفرق بين الإمام والمأموم، والتابع والمتبوع..."( ).

نلحظ الإجابة المغلقة بـ(لا) التي تتضمّن تقديم المعلومات والدعوات الاجتماعية المعلّلة، ولمّا وصل الأمر إلى الإجابة عن تهمة سياسية، حصل إطناب في الإجابة، حتى تضمّنت الأسئلة معنى التحقير( ) في قوله: (ومن ابن سعدان؟!) للإشارة على الخليفة بأن لا يسمع من هذا الرجل سعاية؛ لأنه غير صادق، ما أدى إلى اتضاح دلالة الإجابة لتحقيق وظيفة الإقناع البلاغي( )، وهي وظيفة خارجية.

3. وظيفة استمرارية الحديث في الاستفهام وجوابه:

وتتضمّن هذه الاستراتيجية توضيح المعلومات وإعادتها وتأكيدها عن طريق الاستفهام وجوابه، ومن ذلك ما ذكره الآبي ويحقق هذِه الوظيفة بعدة أقوال منها قول أبي نواس إنه قال: "قلتُ لرجلٍ من البخلاء: لمَ تأكل وحدك؟ فقال: ليس هذا سؤالًا، وإنما السؤال على مَن أكل مع الجماعة؛ لأن ذلك تكلّف. وهذا هو الأصل"( ).

وحاور إبراهيم بن سيابه قوامًا فأعجبه من جوابهم، فقال: "لم تخرجونني من جواركم؟ فقالوا: لأنك مريب، فقال: ويحكم ومن أذلُّ من مريبٍ، أو أحسن جوارًا؟. وقيل لبعض الصوفية، أتبيع جُبتك الصوف؟، قال: إذا باع الصياد شبكته فبأيّ شيء يصطاد؟"( ).

وقال بعضهم: "ما قطعني إلا غلام قال لي: ما تقول في معاوية؟ قلت: إني أقفُ فيه. قال: فما نقول في يزيد؟ قلت: ألعنُه. لعنهُ الله، قال: فما تقول فيمن يحبّه؟ قلت: ألعنه. قال: أفترى معاوية لا يحبُّ يزيد ابنه؟!"( ).

نلحظ تأكيد وظيفة الحديث في أسلوب الاستفهام وجوابه الذي يعدل فيه الأسلوب عن الوظيفة التوجيهية المباشرة إلتي تقتضي إجابة صريحة على الاسئلة التي تعبر عن مقاصد المتكلم بصورة غير مباشرة، وفي هذا الأسلوب تسمّى الأسئلة بـ(أسئلة الأقمعة) من القمع اسم الآلة المعروفة، وهي: "أن يبدأ المرسل بسؤال مفتوح، بعقبه بأسئلة تأخذ في الانغلاق المتدرج للوصول إلى أسئلة مغلفة تماماً"( )، وذلك ما ينعكس أثره في متلقي الجواب سواء كان إحدى شخصيات الحوار أم كان قارئاً ناقدا يُعجب بنتائج الحوار التي تبلغ هدفها بأوجه الأساليب وأقواها حجّة وذكاء. ومن ذلك ما رواه الآبي بأن رجلاً أُتي به إلى هشام وقد رُمي بجناية، فأقبل يحتجّ عن نفسه، فقال هشام: "أو تتكلّم أيضاً؟! فقال الرجل: إنّ الله تعالى يقول: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا)( )، أفنجادل الله جدلًا، ولا نكلّمك كلامًا؟ قال: تكلم بما أحببت"( ).

وكتبَ صاحبُ البصرة إلى يعقوب بن الليث الصفار يستدعيه إلى مبايعته فقال لكاتبه: "أجب عن كتابه. فقال: بماذا؟ قال: أكتب: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)( ).

وقيل لأبي الهذيل: "إنَّ قوماً يلعنونك. قال: أرأيتَ إنْ أنا تبعتهم هل يلعنني قومٌ آخرون؟ قال: نعم، قال: فأراني لا أتخلص من لعن طائفةٍ، فدعني مع الحقِّ وأهله"( ).

وقال الرشيد للجهجاه: "أزنديق أنت؟، قال: وكيف أكون زنديقًا، وقد قرأت القرآن، وفرضتُ الفرائضَ، وفرقتُ بين الحجّة والشبهة؟ قال: تالله لأضربنّك حتىُ تقرَّ. قال: هذا خلاف ما أمرَ به الرسول (ص)؛ أمرنا أنْ نضرب الناس حتىُ يُقرّوا بالإيمان، وأنت تضربني حتى أُقرَّ بالكفر"( ).

ويكثُر هذا الأسلوب في النوادر، إذ روى الآبي كثيراً منها بقوله: "ثوب إعرابي لبناً، وابنه على يساره ورجلٌ آخر عن يمينه، فسقى ابنه قبل الرجل، فقيل له: السُّنّة أنْ تسقى مَنْ عن يمينك، فقال: قد علمتَ أنه أحبَّ إلي من السُّنّة.

وقيل لأعرابي أتخاف أحداً؟، قال: نعم، الذئب في البادية والشرطي في الحضرة...وقيل للآخر مالك لا تغزو الروم؟ قال: أخشى أنْ أُقتلَ ولا يُطلبُ بثأري"( ).

نلحظ ممّا سبق أنّ استراتيجية السؤال والجواب قد حقّقت وظيفة استمرارية الحديث الذي يقوي أواصر الحوار وينتهي بنتائج مقنعة بسبب توضيح المعلومات للسائل، وتأكيدها بالروابط السببية، وإعادتها لتستقّر في النفس على شكل قناعة ليست بالضرورة أن تكون فيها المعلومات مطابقة للواقع، لما فيها رمزية سيميائية.

4- وظيفة تقوية قناة الاتصال في الاستفهام وجوابه:

تحقق استراتيجية السؤال والجواب وظيفة تركيز الحوار، وتقوية المعلومات المشتركة لتوسيع الخطاب بتقوية قناة الاتصال( ) التي تنبه المتلقي؛ لذلك لا تحتاج هذه الاستراتيجية إلى جواب مباشر أحياناً، لأنها تتضمّن الجواب في نفسها. وتنقسم هذه الوظيفة على قسمين، أولهما يقوي العلاقة بين طرفي الاتصال، وثانيهما: يقطع العلاقة بينهما.

وممّا يقول العلاقة ما رواه الآبي عن محمد بن سليمان بن علي والي العباسيين على البصرة وكان ثرًّا، إذ كانت "غلّته في كل يومٍ مائة ألف درهم، وسُمِعَ دعوَه في السحر: اللهمَّ أوسع عليَّ؟! فإنه لا يسعني إلا الكثير"( ). وهو سؤال جاء بأسلوب الدعاء( )، وتقدير الكلام: اللهمّ إنّي أسألك المزيد.

وقال الآبي: "زعموا أنّ الحسين الخادم أطال الجلوس عند الواثق، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إلى أمير المؤمنين فلا، ولكنْ إلى اللهِ فيه.. وهي أن يُطيل بقاءه ويُديم نعماءه"( ).

وروى الآبي أنّ رجلًا أتى النبيَّ (ص) وقال: "يا رسول الله (ص) إنّما أُوخذُ من الذنوب بما ظهر، وأنا استتر بخلال أربع: الزنى، والسرقة وشرب الخمر، والكذب، فأيهنَّ تركتَ لك، يا رسول الله؟، قال: دع الكذب. فلّما ولّى عنهُ همَّ بالزنى، فقال: يسألني رسول الله فإنْ جحدتُ نقضتُ ما جعلتُ له، وإنْ أقررتُ حُددتَ أو رجمتُ، فلم يزنِ. ثم همَّ بالسرقة ثم بشرب الخمر، ثم فكّر في مثل ذلك، فرجع إلى رسول الله (ص)، فقال: يا رسول الله قد أخذتَ عليَّ السُبل، قد تركتهنّ جميعًا"( ).

نلحظ أنّ شعوية السؤال وجوابه الذي يحقق تقوية قناة الاتصال أنه يكشف عن الحقائق النفسية كشفًا ليس فنيًا، وإنما كشف فلسفتي عقليّ يقوم على صدق التواصل بحقائق الموجودات كما هي في الأعيان أو في الأذهان، بخلاف نصّ الفن الذي يكشف عن حقائق الموجودات في حضورها العيني المباشر( ).

أما ما يؤدي إلى وظيفة قدع العلاقة بين طرفي الاتصال، فقد روى الآبي عن رجل من أهل دمشق وشى بجارٍ له لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، قال: "أصلح الله الأمير عندي نصيحه، قال له: ليت شعري ما هذِه النصية التي ابتدأتني بها من غير يدٍ سبقت منّي إليك؟! قال: جارٌ لي عاصٍ متخلّف عن ثغر. فقال له: ما اتقيت الله، ولا أكرمتَ أميرك، ولا حفظت جوارك!...ثم قال: يا أهل دمشق، أمَا عظمتم ما جاء بهِ الفاسق؟ إنّ السعاية أحسبُ منه سجيةً، ولولا أنه لا ينبغي للوالي أنْ يعاقبَ قبل أنْ يُعاتِبَ كان لي في ذلك رأي، فلا يأتيّني أحد منكم بسعاية على أحدٍ بشيء، فإنّ الصادق فيها فاسق، والكاذب فيها نّبهات"( ).

وفي خطبة عبد الله بن علي العباسي لما قتل مروان بن محمد: "..ركض بكم أهل الشام آل حوب وآل مروان يتسكّعون بكم الظلم...فما يقول علماؤكم غداً عند الله؟! إذ يقولون: ﴿رَبَّنا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنْ النَّارِ [فيقول] لِكُلٍ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ﴾( )....."( ).

وخطبَ سعيد بن العاص أُمّ كلثوم بنت علي (ع)، وبعث إليها مائة ألف درهم، فشاورت الحسن(ع) في ذلك فقال: "أنا أزوجك وآتعدوا. ولم يحضرِ الحسين(ع)، فقال سعيد: أينَ أبو عبد الله؟ فقال الحسن: لم يحضر. وأنا أكفيك، فقال: لعلّه كرِهَ شيئًا مما نحن فيه. قالوا: نعم، فقال سعيد: لم أكن لأدخل في شيءٍ كرِهَهُ أبو عبد الله...."( ).

وسأل رجلٌ من بني تميم عن رجلٍ فقيل له: دعاه ربّه، فأجاب فقال: ولِمَ أجاب؟ لا أجاب، أمَا علم أنّ الموت إحدى المهالك؟"... وقيل لأعرابي: هل تعرف من النجوم شيئًا؟ قال: ما أعرفُ منها إلا بنات نعش، ولو تفرقنَ ما عرفتهنَّ"( ).

وخلاصة القول: إن شعوية أسلوب الاستفهام وجوابه تأتي من تفعيل طرفي الاتصال (المتكلم والمخاطب) وتبادل أدوارهما في المشاركة البلاغية والاقناعية عن طريق تنشيط التفكير وإثارة التنبه وتحريك الشعور والتشويق للحصول على معرفة الجّدية والهزلية، وتقوية قناة الاتصال إلى غير ذلك من أغراض تسبغ صفة الشعوية على شبكة العلاقات الكلامية وهي تدور في سياقها الاجتماعي، الذي يفعل عنصر المشاركة بين طرفي الاتصال بطريقة ذكية مثوة تدهش النظرة أو القراء اللاحقين؛ لذلك تحفظ بوصفها إرثا فنيا ثقافيا مفيدا في الحياة العملية.

الحواشي

[1]. تلخيص المفتاح، القزويني: 99.

[2]. ظ: المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، يوسف جميل الزعبي: 17، البلاغة والتطبيق، أحمد مطلوب وكامل حسن البصير: 135.

[3]. نثر الدر في المحاضرات: 286/1.

[4]. ديوانه:

[4]. نثر الدر في المحاضرات: 260/1.

[5]. الورهاء صفة مشتقة من وَرَهَ، بمعنى "حَمُقَ، والنعت: أوره وورهاء، والريح: كُثُر هبوبها". القاموس المحيط، الفيروزآبادي: 1394 (وره).

[6]. نثر الدر في المحاضرات: 141/2.

[7]. م.ن: 132/3-133.

[8]. مسدفا مشتقة من السدف بفتح السين وُيضمّ، بمعنى الظلمة، أو اختلاط الضوء والظلمة معاً. ظ: القاموس المحيط، الفيروزآبادي: 603، (سدف).

[9]. سورة مريم: 42.

[10]. نثر الدر في المحاضرات: 133/3.

11. سورة البقرة: 258.

12. نثر الدر في المحاضرات: 204/4.

13. م.ن: 206/4.

14. سورة البقرة: 30.

15. الكشاف، الزمخشري: 154/1.

16.نثر الدر في المحاضرات: 207/4.

17.م.ن: 208/4.

18.م.ن: 210/4.

19.م.ن: 207/4، و208.

[20]. م.ن: 342/6.

م.ن: 342/6.

21. نثر الدرر في المحاضرات: 266/1.

22.ظ: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري: 52-53.

[1] م.ن: 53.

23. سورة التوبة: 120.

24. نثر الدر في المحاضرات: 267/1.

25...ظ: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري: 132.

26.ظ: الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، د.أحمد يوسف: 15.

27. نثر الدر في المحاضرات: 276/1.

28.ظ: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري: 133.

29.ظ:في آفاق الكلام وتكلم النص، د.عبد الواسع الحموي:294.

30.نثر الدر في المحاضرات: 290/1.

31. ديوانه: 92.

32.نثر الدر في المحاضرات: 290/1-291.

33.سورة التين:1-2.

34.نثر الدر في المحاضرات: 157/3.

35.م.ن:193/3.

36.ظ: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري:353.

37.ظ: م.ن: 353.

38.مفتاح العلوم، السكاكي: 415.

39.نثر الدر في المحاضرات: 132/2.

40.م.ن: 152/3-153.

41.ظ: تلخيص المفتاح، القزويني: 104.

ظ: الدلالات المفتوحة، د.أحمد يوسف:65.

42. نثر الدر في المحاضرات: 193/3.

43.م.ن: 132/2.

44.م.ن: 133/2

45.التفاوض أو إدارة المقابلات، حسن محمد وهبة: 49.

46.سورة النحل:111.

47. نثر الدر في المحاضرات: 134/2.

48.سورة الكافرون:1-2.

49.نثر الدر في المحاضرات:136/2.

[50]. م.ن: 137/2.

51.م.ن:307/6.

52.ظ: استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري: 354.

53..نثر الدر في المحاضرات: 311/1.

54. ظ: تلخيص المفتاح، القزويني: 105.

55 نثر الدرر في المحاضرات:53/6.

56.م.ن: 343/6.

57.ظ: في آفاق الكلام وتكلم النص، د.عبد الواسع الحموي: 294.

58. نثر الدر في المحاضرات:116/3.

59.الأحواف:38.

[60]. نثر الدر في المحاضرات:301/1.

[61] م.ن:115/3.

61.م.ن: 307/6-308.